المنصور الذهبي

(تابع لما نشر في العدد الاخير)

وقد كانت معسكراته تضم في ثكناتها الترك والعرب والاندلسيين وفرقاً من سائر قبائل المغرب تمتاز كل طائفة عن الاخرى بهيئة مخصوصة وشعار مخصوص يجعلها في دائرة محدودة سواء في حالة السلم أو في حالة الوغى، على أن عنايته باقتناء المعدات الحربية لا تقل عن اعتنائه بترتيب الجيوش واتخاذ النجائب والفرسان وارباب السيوف مما كان يبعث الرعب في افئدة الطامعين بدون احتياج الى النزال وقد تحدث لنا التاريخ عن اخلاء مدينة آصلا التي كانت اذ ذاك محتلة بجيوش الصليب من الرعب الذي ساور اولئك النازلين من كتيبة اسلامية منصورية لم تكن مستعدة لاشعال نار الحرب مما ترنم به أبو العباس في قوله :

يا أيها المنصور أبشر بالعلى فالله أبلغ في العدا المامولا
انضاكم سيفاً لحتف عداته وبكم غدا سيف الردا مفلولا
وهزمتم الشرك المتين بعزمكم من غير سيف لم ير مسلولا

الى آخر ما ذكر في قطعته المتواضعة وبذلك تستبين قوة المنصور المظفرة .

رتب الجيوش لانها رمز القوة فشرع في ترتيب الديوان لانه رمز العدالة والمساواة في الحقوق وحفظ المصالح العامة والخاصة فرتب الدواوين الحكومية وأحسن ترتيبها واصبحت ضخامة الملك تتجلى في تلك النظم التي سنتها عزيمة المنصور القوية وارادته الجبارة في صرامة واعتزاز ورغماً عن تشبعه بالثقة التامة بنفسه في كل ما يرومه فقد خصص يوماً - دعاه يوم الديوان - لاستشارة وجهاء القوم وكبار القواد وذوي النظر السديد في امته في كل ما يرجع على المملكة برفع مستواها تحت لواء العز وافياء الرفاهية في العهد الذهبي .

وقد كان طموحه دائماً يرمي الى ايجاد مملكة أوسع من دائرة ملكه للتوسع والاستعمار وفعلا جرد السيف على توات وتيكرورين ومن حولها واخضعها لسلطانه مما زاد في تعاظمه وقد هادته الملوك وكذلك الخلافة العثمانية غير أنه لم يأبه لرسل الخليفة وعد ذلك اهمالا من المنصور لمقام الخلافة العثمانية حتى كادت تنقطع العلائق السياسية بين المنصور والسلطة العثمانية وقد اتخذ تجار الفتنة ذلك سوقاً رابحاً لاثارة الفتنة وتحكيم السيوف، ولولا حكمة المنصور واقتداره على تلافي الامور في ساعة الشدائد لتدفقت عليه سيول الجيش التركي الذي كان مرابطاً على حدود المغرب في تلمسان من المستعمرات التركية حيث صدرت الاوامر من السلطان مراد بمنازلة المنصور وامتشاق الحسام بسبب ما عده اهانة لكرامته واهمالا لرسله فبادر المنصور في تهدئة روع الخليفة بواسطة سفيره الشاب المهذب أبي عبد الله العباس أحمد بن علي المراكشي فأدى الرسالة واحسن السفارة وسكن روع الخليفة فرجع بنتائج عظيمة وقد بعث المنصور في سفارة اخرى قاضي الجماعة بمراكش أبا القاسم ابن علي والقائد الكبير عبد الرحمن المراكشي الشيظمي لتبديد كل الاوهام التي ساورت الخلافة من جهة المنصور ولتوطيد العلائق السياسية واستحكامها استحكاماً لا تنفصم عراه فوفقا في ماموريتهما ورفع الخليفة مكانتهما فرجعا للمغرب وقد رجعت الحالة الى احسن مما كانت عليه بين المنصور والسلطان مراد .

وبتلك التراتيب الفخمة اصبحت عظمة المنصور تزداد في القلوب على أنها كان لها القسط الاوفر من قلوب سائر الافراد مما ادى بكل طائفة أن تبدي شعورها وميولها نحو جلالة المنصور في ضروب من المدائح وكان ممن يعني بذلك جماعة الصوفية التي رأت الارتماء بين احضان المنصور والتقرب من العرش مما يكون له الاثر الكبير في تدعيم المبدا الصوفي الذي أخذ ظله يتقلص بفقد نفوذه الادبي والسياسي في عهد أبي عبد الله الشيخ الذي امتحنت فيه مشايخ الطرق امتحانا عظيماً امتهنت فيه كرامتهم ولحقهم من الاضطهادات ما شلت به حركة التصوف في خنوع وامتهان حيث صدرت مراسيم سلطانية بهدم الزوايا في المغرب الاقصى وبتغريب مشايخ الطرق في غيابات السجون وقد كانت زاوية الشيخ أبي محمد الكوش ضحية ذلك المرسوم حيث نفذ فيها الهدم وابعد الشيخ الى فاس ونال كل زاوية قسط من الامتهان ادى الى ابتذال كرامتها وقد كان المتصوفة السبب في امتهانهم حيث خرجوا بالتصوف عن طوره التهذيبي وصيروه اداة للدسائس ومركزاً للادوار السياسية ، وفي عهد المنصور اتخذ الصوفية مبدأ الاحلام وتفسيرها على لغة التصوف منهاجاً يتوصلون به الى اقناع المنصور بتأييد المتصوفة له في اليقظة بما يرونه في حقه من الاحلام اللذيذة مما خلف لنا هذا الضرب من المدائح المنامية على لسان مشايخ الطرق وقد تقدمت المباراة التصوفية في اختلاق الاحلام تقدماً غريباً وقطعت شوطاً

بعيداً في تنسيقها ووضعها في قالب يوهم الحقيقة وينالون به المراد... وقد نشطت احلامهم في وضع التفاسير والشروح واسباب النزول وما الى ذلك من رؤية الرسول في مراءى يطول ذكرها ، وما قصة الزند وتفسيرها بالاشارات المنامية لاستخلاف المنصور عنك ببعيده، ومهما يكن من امر تلك الاحلام ومقادير ما يعطى لها من الرعاية والاعتبار فلا يمكننا التسليم بترتيب اوضاع تشريعية ترتكز عليها كما زعم بعض المؤرخين في رؤيا تخص المنصور حيث قال وهذا مما يدل على أن ولاية الاسلام لا تنعقد الا بامر الرسول ـ يعني ولو منامياً ـ على أن تفسير الاحلام على مقتضيات الاحوال بدعة عتيقة في منطق التصوف بل هو محور الدائرة التي تروج عليه دعايتهم وللمؤرخين عناية بادراج ذلك في كتبهم التاريخية لمقاصد يطول بسطها .

فتحه للسودان واستعماره : لما توطدت للمنصور أركان الخلافة رأى ما كانت تطمح اليه همته من الفتح والتوسع الاستعماري لزاماً وقد استلذ تلك المغامرة الجريئة غير أنه من دهائه وسداد رأيه رأى أن لا تكون تلك التجربة الشاقة مع دولة الاتراك في الجزائر ولا مع دولة الاصبان في الاندلس لقوة الاولى وتحصن الثانية بعد انفصالها عن مراكش فتوجه نظره الى فتح مملكة السودان المترامية الاطراف وضمها الى الامبراطورية المراكشية ليتسنى له التوسع الاداري ولشعبه التوسع الاقتصادي ويوحد تلك الممالك البعيدة تحت رايته الخفاقة اذا ساعدته الحظوظ وصادفه التوفيق فرأى عقد مؤتمر كبير في مراكش يضم بين افراده من يمثلون الشعب المغربي من قواد حربيين ورجال الديوان وكل ذي رأس سديد للبت في مسألة السودان واستعماره ، فانعقد المؤتمر تحت اشراف جلالة المنصور وافتتح المؤتمر بخطبة ضمنها رأيه الصائب في وجوب ضم السودان الى المملكة المغربية على أن ياخذ رأيهم في مناقشة تلك الفكرة أو مناصرتها قبل أن تصبح امراً واقعاً ، غير أنه صادفته معارضة قوية في تلك الفكرة التي ترمي الى غزو السودان واستعماره بحجة انها مغامرة قد لا يصادفها التوفيق فتئول بالجيوش الاسلامية الى الفناء في تلك المفاوز الصحراوية وتلك الاراضي القحلة قبل وصولها الى الغاية المقصودة مما يكون له اثر سيء في مآل المنصور وقوته الغاشمة ، بيد ان المنصور يقابل تلك المعارضة بثبات رأي ورباطة جأش وسعة صدر حيث قام خطيباً مرنا يبدد تلك الاوهام التي ساورت افكار المؤتمرين ويزيل من عقيدتهم تلك المخاوف في منطق معقول وقول صريح ، على أن المنصور أبى الا أن يكون دكتاتوراً مصلحا ، في مهمته هذه التي يرى فيها من بعيد ما تقاصرت عنه انظار المؤتمرين وأبت عليه شهامته أن يتوانى عن تعبئة الجيوش المنصورية لاقتحام السودان فأخذ للامر عدته وتحصن بالحيطة التامة في مهمته وخصص لذلك خراجاً كثيراً يعتمد في اموال الدولة لتتأهب الجيوش الاسلامية الى منازلة السودان وقد انقاد لذلك ارباب السيوف ورؤساء الاجناد فحشد لذلك جيش رهيب تحت قيادة الباشا جؤدر وكان يوم خروج الجيش من مراكش يوماً مشهودا ، خرجت تلك الجيوش المظفرة من مراكش سادس عشر حجة سنة ٩٩٨ ولم يزل تقطع تلك المفاوز مرحلة مرحلة الى ان التقى الجمعان وتبارز الجيشان للطعان فما هي الا ساعات واذا بنسيم النصر يهب على الجيوش المنصورية واذا بالدائرة تدور على جند اسحق الذي فر هارباً مع جيوشه التي تستظل براية الكهان والسحرة في ساحة الطعان والجيوش المراكشية تقتفي اثرها وتحكم السيوف في جموعه الى ان حاصروه في عاصمة كاغو ، فخضع اسحق وطلب الصلح على اداء جزية سنوية مقابل اقراره على مدينة كاغو ومن حولها فقبل جؤدر الصلح مبدئيا على أن ياخذ رأي صاحب الجلالة المنصور وقد بعث مع الرسل هدايا ثمينة غير أنه ما كاد يبلغ جلالة المنصور خبر ايقاف الحرب حتى استشاط غيظاً لذلك بعد ما ناله مولاه جؤدر وبعث انذاراً للباشا يؤنبه على ما فرط منه وقد كتب على ظهر الرقعة بأناملة « أتمدونني بمال فما ءاتاني الله خير مما ءاتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون » ولا يخفى عليك ما يشير اليه هذا التوقيع من التعاظم وقوة الارادة على نه لم يكتف بذلك بل نحى الباشا جؤدر عن رياسة أركان الحرب وأمره بالتخلي عنها لشقيقه القائد العظيم الباشا محمود على ان يبقى الباشا جؤدر تحت رعايته لينتفع بمواهبه العسكرية.

وصل الباشا محمود وتسلم زمام القيادة فشرع في شن الغارة من جديد على عاصمة السودان كاغو التي كانت محاصرة بجيش جؤدر ثم تأخر عنها في فترة الانتظار وقد دخلوا العاصمة بعد منازلة بسيطة هزم فيها اسحق مع جيشه شر هزيمة وقد نقلت من يد الجيوش المنصورية كالطير ينفلت من مخالب الصقور اوعبر الوادي الكبير النيل كما عند المؤرخين ، والجيوش المراكشية تقتفي اثره وتصلي جماعته ناراً حامية من قذائف مدفعيتها

الى أن لفظ اسحق الروح ، وبموته اندمجت المملكة السودانية في الامبراطورية المراكشية التي اسستها همة المنصور ، فظلت الحمراء العاصمة الادارية للمملكة المنصورية من اقصى المغرب الى بلاد النوبة المسامتة لصعيد مصر ، قال أبو فارس الفشتالي : فأصبحت كلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط من ناحية المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله والله يؤتي ملكه من يشاء ، وبفتحه للسودان واستيلائه على تلك العروش تدفقت على المغرب الاقصى انواع الخيرات من كثرة الذهب والكنوز الثمينة التي كان ملوك السودان وعظماؤه يقتنونها حتى اصبح الذهب في الحمراء متدفقاً على الاجناد والافراد من سائر الطبقات ولذلك لقب المنصور بالذهبي ، واصبحت اراضي السودان مستعمرة مراكشية يقصدها تجار المغاربة للتوسع التجاري والاستثمار وبذلك يكون المنصور قد لعب دوراً خطيراً في تاريخ المغرب الاقصى حيث شيد امبراطورية متنائية الاطراف تعد من تلك الجهات آخر ما وصلت اليه يد الفاتحين من ملوك المغرب وما كاد يتم له النصر في السودان حتى اصبح يتحفز لضم املاك اخرى لهذه الامبراطورية من جزيرة العرب وغيرها لولا ان استأثرت يد المنون بروحه الطاهرة .

ولم تمض ساعات على ضم السودان الى المغرب حتى تدفقت التهاني على المنصور بذلك الفتح العظيم وقد قال في ذلك الشعراء ما جادت به قرائحهم من ذلك قول أبي فارس الفشتالي :

جيش الصباح على الدجا متدفق ... فبياض ذا لسواد ذلك محق
وكانه رايات عسكرك التي ... طلعت على السودان بيضاً تخفق
لاحت وافقهم ليال كله ... كعمود صبح في الدجا يتألق
نشرت لتطوى منه ليلا دامساً ... اضحى بسيفك ذي الفقار يمزق

الى أن قال في وصف المدافع :

صعقت بهن رعود نارك صعقة ... رجت لصيحتها العراق وجلق
سحقاً لاسحق الشقي وحزبه ... فلقد غدا بالسيف وهو مطوق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه ... من جيش جؤدرك الغضنفر فيلق
جيش أواخره ببابك سيله ... عرم وأوله بكاغو محدق

الى ان قال :

كتب الاله على عداتك انهم ... قنص لسهمك غربوا او شرقوا
ضلت ملوك ساجلوك على العلا ... سعياً وشأوك في العلا لا يلحق
بشر ملوك الارض انك فاتح ... بالمشرفي على الولا ما اغلقوا
وبناصل لك ذي الفقار مفرق ... ما جمعوا أو جامع ما فرقوا

وانت ترى نفوس الشعراء وكذلك القواد قد تشبعت بروح الفتح والاستعمار ممالأة للمبادئ التي كان يلذ للمنصور ان يسمع الشعراء يترنمون باذكائها في قصائدهم وكذلك القواد الحربيون فهذا القائد الكبير أبو الحسن علي بن منصور المراكشي الشيظمي تأثر بتلك المبادئ الى امر بعيد يفصح لك عن ذلك ما ضمنه في قصيدته التي القاها بين يدي المنصور في ذكر المولد النبوي وعلى العموم فالناس على دين ملوكهم ومنها :

يا أيها الملك الذي بسيوفه ... حاط الهدى وبرأيه الوضاء
وفى الاله لك الفتوح وصانها ... كالزهر في الاكمام والاوعاء
لابد من فتح يروقك واضح ... كالصبح يدرؤ في نحور عداء
وستملك الحرم الشريف وينتمي ... للواءك المنصور أي مراء

وتوخى الفشتالي تلك المبادئ التي يراها تروق المنصور اذا سمعها في قصيدة طويلة كتبت في احدى نواحي قصر البديع بعد ان وصف منه ما وصف :

ملك أناف على الفراقد رتبة ... واقله فوق السماك سرير
قطب الخلافة تاج مفرق دولة ... رميت بجحفلها اللهام الكور
وجرى الى اقصى العراق لرعبها ... جيش على جسر الفرات عبور

وقال قاضي القضاة أبو القاسم في قصيدته العصماء التي القيت بين يدي المنصور في حفلة المولد النبوي وقد تخلص لذكر المنصور :

هذا الذي يحيي البلاد بعدله ... ويعيدها نشراً وكن رماما
هذا الذي وعد الاله بانه ... يطوي البلاد ويفتح الاهراما

الى آخر ما قيل في تلك المبادئ التي وصفها الشعراء في وثباتهم بانها مضت وباتت امراً واقعا ، وقد اتخذ المنصور يوم الفتح السوداني عيداً زينت فيه الاسواق ثلاثة ايام ، ضم السودان للمغرب واستعمره المراكشيون غير ان نفوس السودانيين ملئت حقداً وبغضاً للنازلين من المغاربة يتربصون الدوائر للقيام بثورة عظيمة قد تؤدي الى انفصال السودان أو الى اراقة الدماء من جديد على أقل تقدير وكان مركز تلك الحركة مدينة تنبكتو التي كانت مقاطعة اسلامية قبل فتحها واستعمارها وقد علم الباشا محمود نائب المنصور اذ ذاك في السودان بتلك الروح التي اصبحت تسري في اجسام السودانيين وعلى أن مصدرها الشيخ «بابا» وجماعة من الفقهاء وسواء كان ذلك حقاً أو وشاية فقد رأى القاء القبض على الشيخ بابا خشية الفتنة ومحافظة على الوحدة الاسلامية لذلك صفده في الاغلال مع أبي حفص عمر القاضي اذ ذاك وبعث بهما الى الحمراء وأوقع بكل من يرى منه الميل

الى الفتنة وانتهبت امتعتها وبعث معها باهلها لمراكش وقد قاسى الشيخ احمد بابا في رحلته هذه اتعس الحياة ودقت ساقه ثم رمي في غيابات السجن برهة من الزمن الى ان شملهم العفو العام من لدن جلالة المنصور فسرح الشيخ بابا السوداني على شرط اقامته بمراكش وقد ذهب لمقابلة المنصور وقد كان اتخذ له حجابا وفق الخلافة العباسية فرفض الشيخ بابا محادثته حتى يبرز له وقد تلا على مسامع المنصور « وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب » وقال في حماسة موجهاً الخطاب للمنصور : أو تتشبه برب الارباب ؟ ولم يكن للمنصور امام كل ذلك الا ان يتنازل من عليائه لمستوى يتواضع فيه مع الشيخ بابا الذي شرع يناقشه الحساب في فتح السودان وردد عليه هلا فتحت تلمسان وهي اليك اقرب من السودان فاجابه المنصور في وداعة ورعاية امتثالا لقول الرسول ـ اتركك الترك ما تركوكم ـ غير أن الشيخ اشتد غضبه وصار يلد في الخصام الا أن رعاية المنصور شملته وسكنت روعه سيما وهو متأثر من محنته فخرج شاكراً وتصدى للتدريس ونشر العلم في مسجد المواسين ووضعت خزانة الاشراف تحت تصرفه وهرع طلبة العلم للاخذ عنه فانتفع الناس بعلمه وبقي يبث العلم الى ان اذن له في السفر لبلاده في عهد الامير زيدان بعد وفاة المنصور اسبلت عليه سحائب الرحمة .

محمد بن عثمان

مراكش

للشاعر الرقيق سيدي أحمد أبّ حنيني

مراكش بلدة يلقى الغريب بها
ما شاء من بهجة تسلي ومن كرم
ساحاتها الفيح جنات منعمة
وناسها الناس في خلق وفي شيم
راق النخيل ورقّ الساكنون به
فالقلب في طرب والطرف في نعم
حسن وأنس واحسان وفاكهة
تذكي وتروي جميعاً رغبة النهم
احمد ابّ حنيني

في قصور مراكش...

بقلم جناب الكاتب الاستاذ معمري أزواو
رئيس ادارة الصنائع والفنون الوطنية بالمنطقه المراكشية

هذه خمسون سنة أو ما يقرب منها وانى مراكش حيث كان يقيم السلطان مولاي عبد العزيز الذي ألقيت اليه مقاليد المملكة وهو في عنفوان الشباب وزيران اخوان وافق وجودهما انتشار عوامل الضعف في الحياة العامة .

فأي شيء كان يروج في خلدهما اذ ذاك ويخامر نفسيهما ؟ لسنا نعلم شيئاً من هذا وقد تضاربت أقوال المؤرخين الذين حاولوا ان يرسموا لنا صورة مما كان يختلج في صدريهما من عواطف وافكار ، غير أننا نعلم يقيناً أن مُقام هذين الوزيرين بعاصمة المرابطين كان من نتائجه الحسنة أن ظهر تحت سماء مراكش قصران لا تنفصل صورتاهما في الذهن اذ أن تاريخهما واحد ، وهذان القصران وهما الباهية التى ابتناها الوزير العظيم «ابّ حمّاد» ودار «السي سعيد» التي شيدها اخوه «السي سعيد» كما يدل على ذلك اسمها ـ ، هذان القصران القائمان في درب واحد على مقربة من « جامع الفنا » نعتبرهما اليوم من آي الفنون الجميلة الجديرة باستهواء السواح والاخذ بألبابهم .

ان دار « السي سعيد » دار رحبة فسيحة الارجاء شاهقة الجدران تحتوي على خمسين حجرة فأكثر وتتفتح أبوابها الثلاثة الى نواح مختلفة ، وان ارضيتها وحدها تتكون من افنية ثلاثة و«رياض» تربط بينهما دهاليز بهيمة في الشتاء ولكنها ظليلة في الصيف .

فاما الفناء الاول وهو ما يسمى «بدار الزليج» فهو مربع مفروش بحجارة الفسيفساء ذات الالون المتنوعة ،